الفصل السابع

قبور و تأملات

في الحياة و في الموت

إن الناس الذين ينتمون إلى شعوب مختلفة. يختلفون فيما بينهم لا بمقدار نمط الحياة بل بقدر موقفهم تجاه الموت. ويبدو هذا للوهلة الأولى تناقضاً ظاهرياً حيث يجب اعتبار أن الموت يساوي بين الجميع ولكن هل الأمر هو كذلك؟ لنفكر ونحاكم!.

أراد الإنسان على مر العصور الماضية أن يكون له غذاء وزوجة وسقف يأويه وأولاد - استمراراً للسلالة، وشعوره الفريد في نوعه بالخلود في الذرية، ولكي يحقق هذه الأماني المتواضعة كانت تلزمه الأدوات والسلاح والأفضل أن تكون الأحسن منها مما كان في المستوى التقني الموجود في ذلك الوقت، وإن لم يخترعها هو بذاته فإنه ينسخ عنها أو يكرر جميع ما شاهده عند الجيران وإذا بدا ذلك معقداً وصعباً فإنه يبتز أو يغتصب الغرض الضروري، وبهذا يتوضح أن مناطق انتشار أنواع هذه الأدوات أو غيرها (السكاكين والفخار... الخ) تكون دوماً بقدر اتساع مناطق انتشار القبائل فالحضارة الأثرية والوحدة الإثنية (السلالية) نادراً ما يتطابقا.

ومقابل هذا فإن طقس دفن الموتى تقريباً له دوماً خصائص تميزه من الطقوس الأخرى. إن دفن الإنسان القريب الغالي - أمر ودي (حميمي) للغاية لأن تقليد الغرباء يبدو شعوراً بدائياً غير لائق بالرغم من أن عدد الطرق النظرية لدفن الموتى قليل جداً (إذ يمكن دفن الجثة، وضعها على الأرض، أو الخشب، أو حرقها، أو إلقاؤها في الماء، وربما لم يبتكر أكثر من ذلك) ولكن التفاصيل في كل حالة تختلف بقدر ما يحدده من هو المدفون في هذا القبر أو ذاك والعدد الأكبر من المرات الممكنة للدفن وتغير طقوس الدفن ممكن فقط

عند تبديل الدين، ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ومرتبطة بقطع جذور وعي الكيان الاثني. فالقبيلة التي غيرت إيمان الآباء هي في حقيقة الأمر قبيلة أخرى.

بدت المقابر القديمة على تل ستيبان رازين وكأنها متحف أثري فكان هناك بقايا قبور السرماثيين القدامى والفخار السرماثي، وكانت قبور السرماثيين مخربة بقبور العهد الخزري، وهنا ظهر تعدد الأنواع غير المتوقع، وكالعادة تدل بقايا النماذج المألوفة للقبور في المقبرة الواحدة على تبدل العهود والشعوب ولكن هنا تعود خمسة نماذج تواجدت معاً بوقت واحد! فقبور محاربي الخان التيوركي وقبور الأولاد والنساء الخزريات متوضعة في مقبرة ضيقة بالتناوب في طبقة واحدة ولكن بفواصل دقيقة بين القبور - لا أقل من ٠.٥م. ومن الواضح أنهم لما دفنوا هنا كان للقبور المعالم الخارجية التي محاها الزمن والأمطار والرياح.

وأول ما وقعنا عليه هو قبور الأتراك ذاتهم ثم قبور حلفائهم - التيليين الذين بقواهم «أظهر الأتراك بطولة في صحارى الشمال» ثم اكتشفنا قبر شيخ - بتشينيغي، وقبل انتهاء التنقيبات اكتشفنا قبر بارسيللي وأكثر من هذا التنوع لم نصادف ولا في أي مكان آخر، ومقابل هذا كانت القبور الخزرية منتشرة في كل الدلتا، ولذلك سنقدم وصف القبور الخزرية في نهاية الفصل، وكما يبدو أن الرحل - السهبيين والخزريين عاشوا وماتوا وهم على مقربة وبسلام ووئام، وخرجوا معاً لسحق الفرس ومعاً صدوا هجوم العرب. ولم تربط الخزريين والبارسيلليين والتيورك والتيليين (التيليتسيون) وحدة العيش والعادات والثقافة واللغة ولكنهم كانوا أصدقاء، ومن وجهة النظر هذه صار من المفهوم لماذا وجد فرع سلالة آشين الغربي المحروم من العرش والمطرود من الوطن ملاذاً في خازاريا، وحكم هناك حتى بداية القرن ٩م عندما انتقلت السلطة من أيدي الخانات الأتراك إلى أيدي الملوك اليهود، وهذا أول ما تحدثت به القبور - التي ستُحمَّل على المخطط فيما بعد - عن الحياة الماضية. ولنر ما يمكن أن تضيفه مأخوذ كل منها على حدة.

التيوركيوت:

حرقوا الموتى وغطوا الرماد بالتراب، في الألطاي حيث الأرض قاسية جداً غطوا رفات الموتى بحجارة من قبور الموتى القديمة المجاورة وبفضل ذلك تمكنا من تحديد أن السويحات التي جمعوا فيها الرماد كانت مربعة، وعلى هذا النحو صادفنا مثل هذه السويحات فقط في تل ستيبان - رازين مع الاختلاف بأن الرماد كان مطموراً بالغضار الرملي المتخثر في القشرة التي تغطي بقايا العظام المحروقة وشظايا (حطام) السكاكين الحديدية.

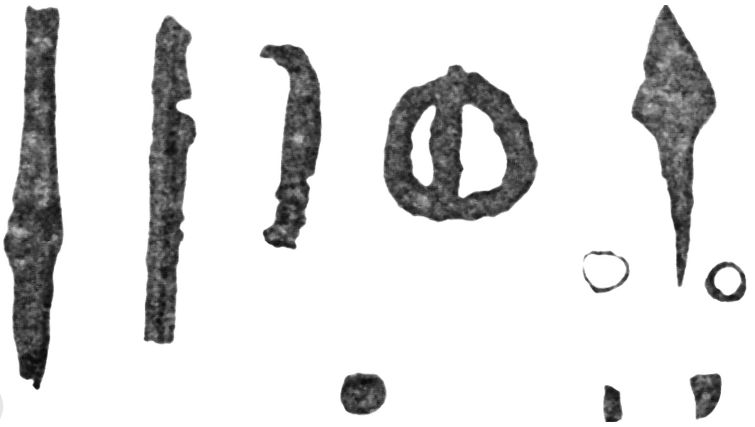

مصنوعات حديدية من تل ستيبان - رازين

إن حرق الجثث - هو من عادة الشعوب المحاربة أحفاد الهنود المنتصرين - الآريين - الهندوس حرقوا الموتى وألقوا الرماد في الماء. وبما أن الجسم البشري لا يحترق بسهولة فمع مرور الزمن صارت تلقى الجثث شبه المحترقة في النهر فريسة للتماسيح. والنورمانديون وضعوا الميت على قارب وأشعلوه ودفعوه بعيداً عن الشاطئ ينساق مع التيار مُشَعلاً ثم يغرق في اللجة والرومان أيضاً أحرقوا الجثة زد على ذلك أعطوا بما يتميزون به من دقة تفسيراً لنشوء العادة «إن حرق الجثة لم يكن مقرراً منذ القديم فالموتى دفنوا في الأرض، أما الحرق فقد قُرر لما خاضوا الحروب في الأطراف البعيدة وعلموا أن الجثث تنبش من الأرض» ويجب الافتراض أن الأتراك كذلك هم أيضاً محاربون كما كان الهندوس القدامى والرومان. والنورمان خافوا من أن العدو قد ينبش أو يهين جثث أبطالهم الذين أرعبوه لما كانوا أحياء. واهتم بمصير الجثة في ذلك الوقت ليس فقط الأقرباء والأصدقاء بل الأعداء أيضاً. فقد آمنت جميع الشعوب - السهبية والسيبيرية في الحياة الآخرة /ما بعد الموت/ وبدا لهم الجسم في دورة اللباس الذي يمكن أن يتبدل عند حلول الفرصة الملائمة. ولكن ذلك مؤسف لأنه جميل ومريح ومألوف. ولذلك تُـذكر في النقوش التذكارية (الشواهد أو الكتابات القبرية - المترجم) التيوركيوتية مراراً كلمة «انفصل» عن القطعان والنساء والأصدقاء وأحياناً استبدلوها بكلمة «لم يورث» (لم يترك لقباً - المترجم) والشيء هو نفسه ولكن على كل حال استمر الميت يتحدث عن شخصه، وبعبارة أخرى كانت الشاهدة عند الأتراك متناقضة بالمعنى والمفهوم مع الشواهد في أيامنا هذه لأن عندنا الأقرباء والأصدقاء يرجعون إلى المتوفى أما عند أولئك فعلى العكس.

إن الاعتقاد بالبقاء بعد الموت كان قوياً وواضحاً لدرجة أن آشين - شونو (الذئب) وهو واحد من أشهر جنرالات فرسان إمبراطورية تان، أراد في عام

٦٤٩م عند دفن الإمبراطور لي - شي - مين الذي كان صديقه الشخصي العزيز أن ينتحر لكي لا ينفصل عن القائد المحبوب. ولم يسمح الزعماء الصينيون المشككون بهذا الاعتقاد بالانتحار.

وجر هذا الموقف من الموت وراءه عادة تقديم الذبائح - القرابين - البشرية الوحشية. ففي دفن ايستيمي خان في عام ٥٧٦م قتل أربعة أسرى حرب لكي يرافقوا الخان في الحياة بعد الموت (ميناندر في كتاب «المؤرخون البيزنطيون» ولم تُسلّم الاختبارات الأثرية بهذه الشهادة لان النار لا تترك أي شيء بعدها. ولكن كان هناك عادة مشابهة عند القبائل التيليسية القريبة باللغة والعيش من الأتراك ووجدت قبورهم أيضاً في مقابرنا القديمة.

التيليسيون:

لا يقلون شجاعة وشدة عزم عن الأتراك، ولم يكونوا محبي حرب وإنما محبي حرية. وكان مثلهم الأعلى ليس الانتصارات على الأعداء بالرغم من أنهم حازوا عليها كثيراً وإنما رعي القطعان في السهول الفسيحة، والأغاني والحكايات حول الموقد في اليورتا (مسكن الرحل في آسيا الوسطى - المترجم) ولذلك أبدوا اهتماماً عظيماً بأيّ ثقافة أجنبية كانت ما عدا الصينية وكان طقس دفنهم مختلفاً ولا يشبه أي طقس آخر أيضاً «يحملون الأموات إلى القبر المحفور. ويضعون الجثة في الوسط مع قوس موتور وسيف إلى الحفر ورمح تحت الإبط كما لو أنه حي ولكنهم لا يطمرون القبر، ولم يعثر على قبور مشابهة في آسيا الوسطى حتى الآن وليس سهلاً العثور على مثل هذه القبور لأن الطيور والذئاب تتخاطف الجثة.

ولكن حفرة القبر في تل ستيبنا رازين تنطمر بالغضار الرملي الرخو بسرعة. ونجحنا بالعثور على أربعة مدافن تيليسية. ومن الصعب جداً التعرف على التيليسي لأن الجثة الموضوعة بوضع عمودي لا تبقى طويلاً فالجسم يتعفن وتسقط العظام إلى أسفل حفرة القبر غير العميقة والشيء المؤسف لعالم الآثار هو أن الجمجمة أول ما تتلف عند طقس كهذا لأنها الأكثر تعرضاً للأمطار والرياح وتبقى عظام الحوض التي بها يمكن تحديد أن المدفونين كانوا رجالاً.

وبالكاد استطعنا أن نحل لغز الهياكل المتشابكة عند الطرف الغربي من التل. وكم كانت هذه اللقى الثمينة معطوبة ولكنها كانت مقبولة قليلاً، وبالقرب من بقايا هيكل تيليسي رقد هيكل عظمي لامرأة كانت فقرات رقبتها مفككة، مسكينة

لقد لووا رقبتها. ووجدت مثل هذه البنت في النصف الشرقي من المقبرة وكانتا كلتاهما من دون أيّ أمتعة ويمكن أن يكونوا قد أرسلوهما لمرافقة أمير الناغيم. ولكن لم تظهر هياكل عظمية للخيول، وعلى ما يبدو أنهم قيموا الحصان في الحملات أغلى من الأسرى نظراً لأن التيليسيين ما كانوا في الوطن (أي وطنهم - المترجم) وإنما بالحرب.

وبدا مهماً أيضاً المدفون الثالث في قبر عمقه ٠.٧٥م حيث كانت عظام رجل بالغ مختلطة مع عظام حصان ولم يظهر إلى جانبهما هيكل لفتاة بالرغم من أن ذلك لم يكن مستبعداً ومن المحتمل أنه كان قد سلِّم من قبل السكان المحليين ذوي الهمة الحاليين كشيء عديم النفع. وكان التعقيد الأشد في هذا المدفن هو أنه شوهد إلى جانب الطقس التيليسي بقايا للنار: الكثير من الرماد وعظام هيكل محروقة. وعلى ما يبدو أن هذا المحارب كان محبوباً جداً من قبل قائده وأظهروا احترامهم له بالتطهير الناري الذي قدموا فيه أحد الجنود البسطاء من القوات المدنية (قوات شبه عسكرية من المدنيين - المترجم). من القبائل الحليفة إذ قدر الأتراك الغربيون ببراعة شجاعة وإخلاص إخوانهم من القبائل الأخرى، ولذلك احتفظت سلالتهم الملكية طويلاً بالعرش أولاً في سيميريتش ثم عند الفولغا وفي الواقع أن نظام اتحاد القبائل وهذا يعني القوات المكونة من الأبطال وأبناء القبائل المتحالفة الذين لم يكونوا مقاتلين أقل شجاعة احتاجوا فقط إلى التنظيم الذي كان مفيداً لكلا الطرفين وهذا النظام الذي حمل اسم «إيل» سمح للرحل طويلاً بصد هجوم الجيران المتحضرين من الجنوب والشرق لأنه كما هو معروف أن الحضارة ليست دوماً مرتبطة بمحبة السلم والعدالة والرحل لهم الحق في العيش في السهب الوطني لا الخضوع للمحتلين.

البتشينيغ:

كان في موطنه تقريباً ولهذا السبب بدا تحديد أن الهيكل العظمي للشيخ مع الحصان الذي وجدناه لا يمكن أن يكون لأحد آخر سواه سهلاً جداً هذا مع أن القول «مع الحصان» يعني احتمال المبالغة فالقسم الأكبر من الحصان الهرم (ذو الخمسة والعشرين عاماً) كان قد ترك فريسة بمثابة طعام تذكاري (أي وليمة تأبين - المترجم) ووضع في القبر فقط الرأس واللجام والأرجل الأربع علاوة على ذلك، وكان هذا أيضاً «مرافقه» ولكنه يبدو مقبولاً أكثر من قتل البنات الأسرى. ولنسلم بأنه من الأحسن أنهم وضعوا في القبر أشياء مثل التي مع هذا البتشينيغي على سبيل المثال فقد وضعوا السرج مع الركاب الدائري وبذلك صار واضحاً تماماً انه لبس حذاءً ليناً لأنه عندما تكون جزمة الفارس ذات نعل صلب فإنه يفضل ركاباً ذا سنادة (قاعدة) مستقيمة، وتوحي أشكال السرج والركابات أن هذا البتشينيغي قد وصل إلى الفولغا من الشرق من رمال

الرين بمدة طويلة قبل أن شق أحفاده طريقهم إلى ضفاف الدنيبر وقتلوا هناك الأمير سفياتوسلاف في عام ٩٧٢م. ومنذ ذلك الوقت يتخذون عندنا موقفاً سيئاً من البتشينيغيين بالرغم من أنه بعد مضي ألف سنة يمكن إعادة النظر في المسألة، والحق يقال أن البتشينيغيين لا يحمدون، فعلاوة على الروس تشكك فيهم المدونات التاريخية اليونانية كثيراً فضلاً عما يشهد به الجغرافيون العرب والفرس لأن جميع هذه الشعوب أصابها الشيء الكثير من البتشينيغيين ولكن هل كانوا على حق؟

تذكرت مصادفة شعر سعدي الذي ترجمته للحال:

فيما مضى في كتاب قد قرأت
عن فلان في منام لإبليس قد نظر
رآه كالسرو ممشوقاً على مرأى البصر
والنور من عارضيه الأسيلين شع وانتشر
لعلك أنت ملاك جميل؟
أم في الحمامات خفيةً بأنفسهم رسموا
بشكل كريه وشنيع إياك قد صوروا»
وهنا تعجب واسترسل بتنهد ونحيب
ثم رد مجيباً «أنت ترى أنا لست هكذا رديء
ليس في أي شيء مشوه أو دميم
ولكن! ريشة الرسم في يد عدوي وعنده التصميم»

وتأملت فقط، من النفايات التاريخية في معارفنا؟ وحتى لم نشكك في ذلك. فنحن معتادون عقلياً على مقولات الحب والكراهية وننسى كلياً السؤال عن: كيف ولماذا نشأت وحتى لا نفكر بمدى صحتها والقول على سبيل المثال بأن البتشينيغيين الذين انتصروا على ياروسلاف الحكيم قد ارتكبوا الشر بحق الروس هو أقل بكثير مما فعله البولوفيين أو تتار النوغاي ومن المشكوك فيه أنهم كانوا فعلاً أكثر وحشية من قبائل السهوب الرحلية الأخرى أو صيادي مناطق أعالي الفولغا - الأوغريون والفينيون؟!

وانهار ازدهار حضارة البتشينيغ في مرحلة القرون الأولى للميلاد عندما استوطنوا كازاخستان الشرقية والوسطى وفي ذلك الوقت انتسب إلى دولتهم جيرانهم الكانغيويين (الكانغيويو) باحترام وخوف. وقوض الجفاف في القرن ٣م قدرتهم ولكنهم نالوا الحرية في القرن ٨م ودافعوا عن أنفسهم ضد التيورغيش والأويغور ولكنهم أبعدوا إلى سهوب الأورال القاحلة وعاشوا هناك بين بين (يقصد عيشة لا بأس بها - المترجم) وخطفت القبائل المجاورة

أولادهم وباعوهم عبيداً. ثم ضغط البولوفيون والغُزّيون على بقايا الشعب البتشينيغي وطردوهم على الغرب. وصمد البتشينيغ حتى آخر إمكانية وما دام ألكسي كومنين (الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنين ١٠٨١-١١١٨م - المترجم) لم ينزل بهم الهزيمة القاسية عند ليبورن في عام ١٠٩١م إلا أنه قوض قوة الشعب ومع ذلك حاولوا مرة أخرى إيجاد مكان تحت الشمس لأولادهم وقطعانهم إلا أنهم دحروا مرة ثانية على يد يوحنا كومنين (الإمبراطور البيزنطي ١١١٨-١١٤٣ - المترجم) في عام ١١٢٢م وبعد ذلك استوطن الناجون من المذبحة عند أسافل نهر الدانوب واندمجوا مع البلغاريين وتعتبر قبيلة الغاغاوزا هي حفيدتهم التي لم ينسَ أبناؤها اللغة التيوركية إلا في بداية القرن ٢٠م فحسب.

ويبدو لي مصادفة أني شعرت بإنصاف تجاه البتشينيغ ولم أحقد عليهم وكم هناك الكثير من المسائل في تاريخ القرون الوسطى التي علينا أن نعيد النظر ونمعن التفكير فيها من جديد لأن المواد الجديدة المتوفرة لم تدخل بعد في إطار المفاهيم القديمة مما قبل الثورة.

البارسيلليون:

هم إحدى القبائل البلغارية القديمة - عاشوا في جوار الخزر وتخاصموا في القرن الخامس الميلادي ثم استوطنوا قبيل القرن ١٠م مع الخزر وذابوا فيهم إلا أنهم لما ظهر تفوق الخزر بوضوح في القرن السابع حافظ البارسيلليون على

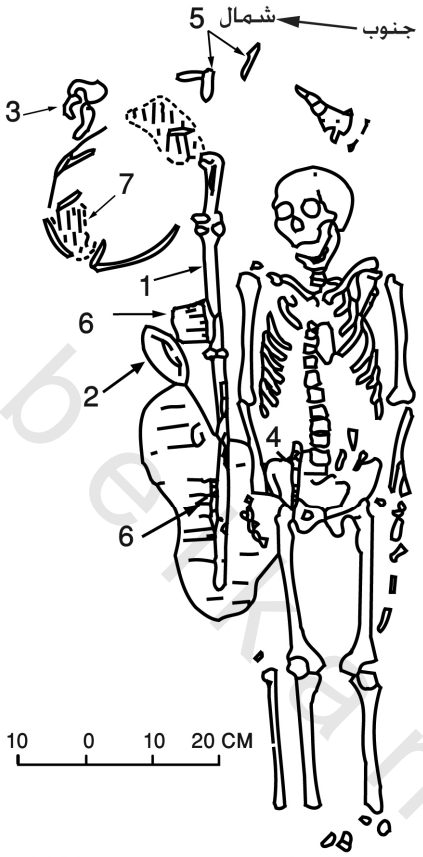

تل ستيبان رازين. تنقيبات عام ١٩٦١ م
قبر رجل بارسيللي:
١- سيف ٢- ركاب ٣- حطام اللجام (الشكيمة) ٤- سكين حديدية ٥- محضنة جلدية من السرج ٦- قبضة خشبية ٧- بقايا جلدية.

ركاب وسكين البارسيللي

obeikandl.com

صفاتهم الاثنية التي تميزهم من الخزر وبالأخص في طقس الدفن فالبارسيلليون دفنوا موتاهم في قبور مبطنة (يقصد لها جدران وأرضية وسقف وليس حفرة تطمر - المترجم).

وفي النصف الشرقي من التل عثرنا على بطانة معمول في جانبها مصطبة عالية ومملوءة بتربة ناعمة هشة مما يتشكل فقط أثناء الانهيال البطيء لجدار وسقف الحفرة ولما أزلنا التربة مثل أمامنا الهيكل العظمي لمحارب رقد من ناحية رأسه عصعص خروف - الذبيحة المعتادة كغذاء للراحل إلى عالم الغيب ولم يكن هناك حصان بالقرب من الميت بل وجد لجام حديدي ومقعد سرج عليه صفائح عظمية مخيطة وركاب دائروي مثل الذي عند البتشينيغي وعلى خصره سكين حديدية بمقبض خشبي. وكل الموجودات دلت على أن هذا الشخص مات في الفترة بين القرنين السابع والثامن ولكن خلافاً لكل المدفونين الآخرين رقد ورأسه إلى الشرق وليس إلى الغرب أو الشمال، وجملة القول كان هذا الشخص تمثيلاً مختلفاً عن العالم وعن الموت ولو أنه مع الأسف لا يمكن التحدث بأي شيء عن حضارته.

ولكن أكثر ما كان يدعو للاهتمام هو السيف بغمده الخشبي على الجانب الأيمن للهيكل العظمي وكان نصله معقوفاً (ولو بشكل غير ظاهر كثيراً) ولهذا السبب يعتبر سيفاً محنياً ذا قبضة. ومن المستحيل أن نتصور شيئاً أكثر أهمية من هذا فالسيف يدل على الإصلاح الحربي في القرن ٦م.

السيف الضالع:

في زمن ما قبل التاريخ لما كانت القبائل المتفرقة غير الكبيرة ينازع بعضها بعضاً على ملكية أراضي الصيد ظهرت الحاجة إلى السلاح وكان يفترض وجود ثلاثة مبادئ أولية تشابه بعضها في أساس معدات القتل وهي سلاح قذف - الحجر الذي لن نتطرق إليه في هذا الفصل وسلاح طاعن - الرمح، وضارب - الدبوس ومع مرور الزمن تطورت هذه الأدوات فالرمح المخفف تحول على مزراق وسهم والمثقل إلى الحربة والدبوس بإضافة حجر معالج إلى نهايته صار فأساً، وبعد اختراع المعادن المصهورة السيف الطويل والمسافة زادت بمقدار كبير ولكن المبادئ بقيت ثابتة وبمثل هذه الأسلحة حارب كل العالم القديم.

وبالطبع أدخلت بعض التحسينات عند استيعاب تقسية الحديد فكان من الممكن صنع سيف ذي نهاية حادة واستخدامه كسلاح طاعن وقاطع بوقت واحد مثل الذي كان مع ليجيونات (فيالق) كلاوديوس (قائد روماني - المترجم) الرومانية وكان يمكن تركيب فأس على نهاية الحربة والحصول على المطرد

(سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب - بلطة - المترجم) الذي أحسن استعماله المشاة الصينيون على مستوى فني رفيع ولكن كل هذه الأشياء كانت تفاصيل وبدا تطوير المبادئ ثابتاً. ويبدو السيف للوهلة الأولى سلاحاً أكثر تطوراً من الرمح ولكن له عيوب مبدئية فالسيف القصير من الصعب إصابة العدو الحائد عنه والطويل سيف اليدين (الذي يستخدم باليدين معاً) ثقيل يعين يدي حامل السيف في القتال الطويل في الوقت الذي يمكن العمل فيه بالرمح طويلاً وبلغ المحاربون القدماء في هذا الفن الأوج بحيث إنهم خطفوا بالرمح أثناء العدو السريع (بالحصان) الحلقة التي أمسك بها المدرب بأصابعه وبطبيعة الحال كان يلزم لذلك تدريباً طويلاً وتمريناً متواصلاً.

ولكني سمعت اعتراضاً: «أين مبدأ القطع وهذا يعني السكين التي من دونها لا يمكن لأي إنسان في وقتنا أن يعيش ساعة واحدة؟ وكيف تصرف الناس القدماء من دونها؟» أجل قطعوا ولكن التقنية الحجرية لم تمكن الأدوات القاطعة من بلوغ تلك الدرجة من الكمال الضرورية في وقت القتال. كان بإمكان السكين الحجرية قطع حنجرة العدو المقيد أو كما يسحب الكهنة الأزتيك. القلب من صدر الأسير لا أكثر من ذلك، واستخدمت الخناجر البرونزية في العمل القريب ولم تستطع بأيّ حال من الأحوال منافسة الرماح والسيوف.

ولكن لما حصل الحدادون الألطائيون على الحديد الممتاز في القرن ٦م من الأفران فكروا بحني السيف قليلاً مع ثني قبضته للخلف عندئذٍ صار ذلك النصل لا يذبح فقط بل يقطع أيضاً وازدادت فعالية السلاح مرات كثيرة، السيف الضالع لم يشق الرؤوس ولم يحطم العظام إنه قطعها ولذلك لم يلزمه النصل الثقيل الوزن وإنما معرفة سحب السيف باتجاه حامله عند الضربة ليس إلا، وفي تلك الأوقات كانت الدروع الحديدية نادرة واستعملت القفطانات المخيطة عليها الصفائح والشارات وكانت تغطي مكان الضربة بسهولة وبدا الفارس المسلح بالسيف الضالع قوة حاسمة عند القتال بالسلاح الأبيض وليس عبثاً أورد كتاب «أخبار الأيام» مثالاً: إن البولوفيين أدوا الإتاوة للخزر سيوفاً ذات حدين أما الخزر فكانوا مسلحين بالسيوف الضالعة ويتنبأ مدون التاريخ مجازياً عن الماضي أن السيف ذا الحدين - تغلب في نهاية الأمر على السيف ذي الحد الواحد ولكن بالطبع كما رأينا سابقاً (الكاتب مخاطباً الروس - المترجم) كان لدى الروس الكثير من الأسباب القوية والطباع الأخرى لدحر الخزر.

ولكي نقيم أهمية السلاح الجديد نعود إلى النص المكتوب في القرن العاشر حول وصف موقعة في القرن السادس استناداً إلى المصادر التي لم تصلنا، وهذا الوصف هو من تأليف أبو القاسم الفردوسي (وهو من كبار شعراء فارس كفريد الدين العطار، وحافظ، وجلال الدين الرومي وغيرهم - المترجم) «الشاهنامه» حيث لم يعق النص الشعري قطعاً وصف مشاهد الموقعة. وبالطبع في هذا العمل يوجد ولا يمكن أن لا يوجد الكثير من اللحظات المقحمة فيها المزايا الشخصية

للمؤلف (الشاعرية - أو متطلبات ذوق العصر - (فن التعليم) - أو مواقفه الشخصية - (الوطنية) - (حب الوطن - ولكننا سنختار المقاطع التي تكون فيها هذه المزايا غير محسوسة (طفيفة) والقيمة النسبية لأنواع التسليح واضحة).

في عام ٥٩٠م فقد القائد الفارسي بهرام الأبرش حظوته لدى الشاه وهو الذي حقق قبل ذلك بقليل النصر على التيورك في المعركة عند هرات وخشية الإعدام «آثار انتفاضة وباستيلائه على السلطة توج شاهاً على إيران وهرب ولي العهد كسرى (الثاني أبرويز - المترجم) الوريث الشرعي للعرش إلى بيزنطة، وهناك حصل على المساعدة العسكرية التي تحرك بها لاستعادة عرش أسلافه. ووقعت الموقعة الحاسمة بين المتدخلين البيزنطيين المدعومين بالأرمن والمهاجرين - الملكيين الفرس وجيش بهرام المحترف والأتراك المنضمين إليه عند باليارات أحد النهيرات التي تصب في بحيرة أورمية في عام ٥٩١م، ويهمنا فقط المشهد الأول من هذه الموقعة - وهو مبارزة البطل غوتا - هازارا (الذي يعادل في القدرة القتالية ألف مقاتل عادي) وبهرام المتدرب عند الأتراك على استعمال السلاح الجديد - السيف الضالع.

ما كادت الشمس تعلو جبينا فوق الجبال
حتى علا فوق الحشود عجيج القتال
وكما الأفلاك دائرة تحركت الأفواج سائرة
والشمس أظلمت من بريق السيوف الباترة

ثم يأتي وصف طويل لاصطفاف الجيشين مع ذكر أسماء القادة - قادة الوحدات وإعارة الكثير من الاهتمام لمشاعر ولي العهد الفتى المضطر لسحق الجيش الفارسي بمساعدة أعدائه الألداء - قوات المرتزقة اليونان. ثم يبدأ بوصف الهجوم الأول للبيزنطيين:

لما دقت طبول الحرب من حول
وتحرك محبو الحرب فجأة عرضاً وطول
قل: هبت الأرض كتضاريس الجبال
وطغى الحقد العنيف حتى السما
ها. الأرض من أساساتها[١] رأت كسرى
وتلاحم[٢] المهاجمون صفاً صفاً
وامتلأت نفسه[١] بخواطر شتى

١- إن هذه الصور محببة للشعراء الفرس ترجمت حرفياً.
٢- الملاحظة السابقة نفسها.

وأدخلت الطمأنينة إليه تترى
وانطلق الغوث[٢] من بين الحشود فجأة
كلٌّ في أسود الحديد يشبه العلم
ونادى كسرى «أيها الأعداء انظروا
أين العبد الذي من أمامه الملوك فروا
دلوني عليه حان الآن أمره
بالرمح قلب المرء يعرف قدره»
متذكراً مع الشاه آخر موقعة
وقف صامتاً - والحزن ملء العيون
ثم أجاب «هيا إلى الأمام تقدم
فإن لمحك وفي الميدان وجدك
وحاول عندها منه لا تهرب
كي لا تعض من بعد خجلاً شفتك»
هنا - عاد الغوث عن كسرى للورا
كان سعيداً بالقتال ماسكاً رمحاً
جاء كالفيل نشوانَ غاضباً
كأنه كان للريح سابقاً
وصاح بهرام: ألبان - سين[٣] «تطلع
هناك مارد أمام الروم واقف
كالفيل هوا! ورمح الحديد في يديه
والوهق[٤] بعيداً في السيور مستتر
ثم خفق النصل في يدي بهرام
صافراً كورقة غضة في هبة الريح
والشاه[٥] على رجليه للقياه هب واثباً
توجه إلى الغوْث بالدمع مغرورقا

٣- الملاحظة السابقة نفسها.
٤- خدم الغوث مرات كثيرة في القرن السادس في القوات البيزنطية وحتى شكلوا مفرزة حرس خاصة (ممتازة).
١- واحد من أخلص أنصار بهرام وفي ذلك اليوم قاد مقدمة القوات الفارسية.
٢- الوهق أ) هو حبل في طرفه أنشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والبقر - المترجم ب) يعني أنه لن يأخذ الهارب من العدو أسيراً بل يقتله. ومجازياً دعوة للقتال حتى الموت.
٣- هكذا يسمي مؤلف الشعر كسرى إحتراماً لأنه كان في ذلك اليوم فقط مطالباً بالعرش.

obeikandl.com

وما إن هب الروم إلى القتال واندفعوا
حتى مادت الأرض تحت أقدام كسرى الجسور
ولم ينله من رمح بهرام ضرر
بالترس رد الضربة دون عناء يذكر
والغوثي - من أمامه انهار نصفين انشطر

وقتل الغوثي بسبب عدم اطلاعه على العتاد الحربي الجديد فقد توقع أن يقاتل عدواً بسيف معروف وليس بالسيف الضالع لأن الدرع كان سيقيه منه أو كان أصابه جرح خفيف وإمكانية الضربة الثانية عند الالتحام تصبح هي الأخيرة لبهرام.

بالطبع كان نسق الرماحة المتراص - كما كان في الماضي - منيعاً على الفرسان المسلحين بالسيوف الضالعة ولكن هؤلاء لم يشاركوا في القتال ولكنهم رموا العدو المتراص بالأقواس. وعندما ينتشر الرماحة حتى لا يصبحوا هدفاً سهلاً للغاية لسهام العدو يجبرهم حملة السيوف على المبارزة ولهم كل الحظ بالنصر.

وانتهت المعركة عند باليارات بانتصار البيزنطيين فقط لأنهم حشروا الفرس بالصخور العمودية (الجروف الصخرية - المترجم) وحرموهم من حرية المناورة وسحقوهم دوساً بالتفوق العددي ٦٠ ألفاً مقابل ٤٠ ألفاً. ولكن في السهوب لم يكن للفرسان المسلحين بالسيف الضالع والقوس من نظير تماماً حتى اختراع السلاح الناري. وبغض النظر عن أن الفرسان الأوروبيين أثناء الحملات الصليبية عانوا الكثير من السيوف الضالعة التركية والعربية فقد استطاعوا أن يعيدوا النظر في تدريبهم القتالي المألوف واستمروا بالقتال بالسيوف ذات الحدين المستقيمة التي تحولت مع الزمن إلى سيوف الفرسان الدارعين العريضة. إن فن إحسان استعمال السيف الضالع تطلب تدريباً مختلفاً وخصائص نفسية فيزيولوجية من المقاتلين، وحتى الخيول فالخيول الأوروبية الثقيلة التي من عليها انقض الفرسان في الهجمات الساحقة ولكن الفاشلة كقاعدة هي غير صالحة لحامل السيف الضالع الذي من صفاته الأساسية خفة الحركة والسرعة. وفقط نابليون حاول تدريب فرسانه متخذاً من تكتيك المماليك المصريين مثالاً، ولكن الإصلاح تأخر ولم ينقذ الفرسان الفرنسيين من سيوف الفرسان الهوسار الروس الضالعة (عساكر من الخيالة) ولا سيوف القوزاق المحسنة قليلاً بالنسبة للسيف الذي كان راقداً في أرضية قبر البارسيللي الذي يحتل الآن مكان الشرف في مجموعات الأرميتاج.

السرماثيون:

سكنوا سهوب الفولغا في القرن الأول الميلادي، وفقط الهونّو أزاحوهم إلى الغرب في القرن ٤م. فهل استطاع الخزر الاشتباك معهم؟ هذا السؤال يمكن الإجابة عنه بطريقتين. لا لأن الخزر - أحفاد المحاربين الهونّو والنساء السرماثيات. ونعم. لأن مثل هذا الشعب الكبير كالخزر لا يمكن أن يظهر بعد جيل واحد ويجب أن يكون هناك بعض الوقت للبقاء مع السرماثيين «الأنقياء» وكلتا الإجابتين لا يمكن أن تعتبر كافية. وعلماء الآثار فقط عندهم القدرة على تحديد: هل عاش السرماثيون في دلتا الفولغا في تلك الأماكن نفسها حيث وجدنا الخزر أو كلا الشعبين كانا في القرنين ٣ و ٤م وتقاسما فيما بينهما أراضي القزوين وعند ذلك أخذ السرماثيون السهب والخزر الدلتا.

نتذكر أن الفولغا في القرنين ١-٢م كان ما يزال فتياً ولكن لما دفع الهونّو السرماثيين إلى الغرب في القرنين ٣-٤م تدفق في مجرى عريض وتحول السهب إلى صحراء وقبيل هذا الوقت جرى الفولغا في عدة مجارٍ خلال السهل والتلال كما يجري الخوردون والكيغاتش حالياً. ولو كان الأمر هكذا لكان لا فائدة من قيام السرماثيين بالاختيار ما بين الأديمين إما لأنه كان في وقتهم أديماً واحداً وبالتالي كان علينا البحث عن القبور السرماثية هناك حيث وجدت القبور فقط لاعتبار أنهم أكثر قدماً. وتكللت تنقيباتنا بالنجاح فكانت أول لقية في تل ستيبان رازين على عمق ٠.٧٥م وبعد نصف متر من قبر تركي حيث انكشف عنق وعاء سرماثي من الغضار الرمادي ثم تيسر لنا هناك في تل بيلينغ العثور على قبر سرماثية غنية.

كان لباسها العريض مزيناً بالخرز المخيط عليه (مطرزاً بالخرز - المترجم) ومُشَبَّكاً بمشابك برونزية مزخرفة وبكلات مصممة على مبدأ الدبابيس الفرنسية واستقرت على صدرها مرآة برونزية. وبطبيعة الحال بَلِيَ اللباس ولكن الخرز والمشابك دلا على كم كان واسعاً وربما مريحاً.

وبالتالي استوطن السرماثيون الدلتا في القرن الأول الميلادي وهكذا وجدنا أسلاف الخزر.

خازاريا ونظرية الحتمية الجغرافية

تتبعاً لأفكارنا التي أوحت بها مشاهداتنا أثناء الرحلات في الصحارى والأدغال يمكن أن يقول القارئ في نفسه إن دور العامل الجغرافي قد أشار لنا بالاقتراب من مفهوم نظرية الحتمية الجغرافية التي صاغها بالشكل الأدق مونتسكيو في كتاب «روح القوانين» ولكن يكفي إيراد أمثلة من شرح مونتسكيو لأهمية الظواهر الطبيعية للمجتمع البشري لكي نتأكد من مدى اختلافه عن طريقة تقربنا منها والنتائج.

يقر مونتسكيو أن الطقس الحار يضعف الروح والجسد أما البارد فيجعل من الإنسان قوياً نشيطاً. والجنوبيون يتحسسون بشدة بالألم أما الشماليون فعلى خلاف ذلك فهم أقل حساسية. في البلاد الشرقية يولد الطقس الحار كسلاً بدنياً وذهنياً وتبعاً لذلك لا تتبدل الطباع والعادات والقوانين هناك. ولا تتمتع شعوب البلاد الحارة بالرجولة ويكونون مستعبدين بشكل دائم تقريباً لشعوب الشماليين الشجعان «تجعل التربة القاحلة الناس ماهرين في الحرف وحاضري الذهن، أقوياء في العمل شجعاناً قادرين على الحرب لأنهم بحاجة للحصول على ما لا تقدمه لهم الأرض. والبلاد الغنية تعطي السكان إلى جانب الرفاهية حب المحافظة على الحياة. وفي السهوب حيث يصعب الدفاع عن الحرية ينشأ الحكم المستبد. أما الجبليون فيمكنهم الدفاع عن أنفسهم لأنه من الصعب إدارة الاحتلال في الأراضي الوعرة وإلى مثل هذه الادعاءات وما يماثلها تقود الحتمية الجغرافية الخاضعة لفكرة الطبيعة الشمولية المنطقية حيث تدخل فيها أيضاً ظواهر الحياة الاجتماعية.

إن الناحية المبدئية في الأمر مهمة للغاية فجميع أنصار نظرية الحتمية الجغرافية يفترضون وجود التأثير المباشر للظواهر الطبيعية في الحالة النفسية للناس والتطور الاجتماعي ومن وجهة نظرنا نحن أيضاً هذا التأثير غير موجود فالتطور الاجتماعي - هو شكل الحركة الحلزونية التلقائي وهو بحد ذاته لا يمكن أن يكون مرتبطاً بحال من الأحوال بالظواهر الخارجية المنشأ بما فيها تغيرات المناخ وأديم الأرض. إن عقلية الناس - هي أيضاً ظاهرة النظام الخاص الذي يتوقف على الفيزيولوجيا التي كانت في زمن ولادة النظرية الحتمية الجغرافية علماً غير متطور ولم تؤخذ أهميتها بالحسبان. وفي رأينا أن دور الطبيعة أثر في الخصائص الأنثوغرافية (الأنثروبيولوجية الوصفية أو بتعبير أقرب السلالية - الإثنوسية المترجم) ومناطق انتشار الشعوب ولكن ليس بصورة مباشرة وإنما من خلال الاقتصاد، وهذا يعني أساس الحياة الاقتصادية. فالطبيعة

لا تملك تأثيراً محدداً في حياة الناس، وأديم الأرض لم يحدد نوع أعمال أي شعب من الشعوب، فهناك حيث كانت الأعمال المعتادة غير ممكنة فضَّلَ الذين يمثلون هذا الشعب أن لا يستوطنوا، لأن سكان الغابات نادراً ما تأقلموا مع شبه الصحارى وفضلوا الوديان النهرية. أما السهبيون حتى الذين امتلكوا الغابات الكبيرة فقد فضلوا الأماكن المفتوحة للإقامة واستوطن أوغريو - الساموديتيس تيورك ياقوتيا التوندرا والمروج في وادي اللنْ تاركين غابات التايغا للخانت والايفنيكاميين باستثناء القليل من هذه القاعدة، ولكن دوماً يمكن تفسيرها على ضوء أحداث التاريخ السياسي. إن الاختلاف بين اقترابنا ونظرية الحتمية الجغرافية واضح فكل من الطريقتين تنفي الأخرى.

ليس من الصعب ملاحظة أن المواد التي جمعناها تسمح بتفنيد جميع مزاعم مونتسكيو المعدودة التي بناها عقله على كمية غير كافية من المعلومات. لأن تاريخ آسيا الشمالية وأوروبا الشرقية ظلاّ خارج مجال اهتمامه لأنهما كانا في منتصف القرن ١٨م غير معروفين عند الأوروبيين والصيف في السهوب المغولية والكازاخية هو أكثر حراً من أوروبا الغربية وآسيا الدنيا ولكن هذا هو وطن الأبطال، إن الكسل الذهني وثبات العادات - خرافة! شاهدنا هناك إلى أيّ درجة كانت الحياة الاقتصادية والسياسية متفاقمة في القرون الوسطى الباكرة. وعلى العكس كان الغرب في حالة ركود تقريباً، ومن السخافة الحديث عن غياب الذهن عند الجنوبيين لأن الفتوحات العربية في القرنين ٧ و ٨م كانت من صنع الجنوبيين خاصة ويمكن إيجاد أمثله مشابهة بقدر ما تريد، ولا يوجد أنظمة جغرافية في مفهوم الاحتلال فهؤلاء ينتصرون مرة وآخرون مرة أخرى. إن قسوة الطبيعة لا تساعد قطعاً على تقسية (تصليب) الناس فهناك حيث الظروف الطبيعية قاسية فعلاً كالصحارى والتايغا السيبرية وغرينلاند - ينهك الناس في الصراع اليومي من أجل الحفاظ على البقاء، ولم يلاحظ عندهم أي تطور والسهول كذلك لم تساعد على تشكيل الاستبداد وهكذا على سبيل المثال: الغُزّ والبتشينيغ والبولوفيون عاشوا أبناء قبائل أحراراً متحدين أما في جيورجيا الجبلية وآسيا الصغرى فقد أقاموا منذ الماضي البعيد حكماً ملكياً وأخيراً تستخدم استراتيجية المناورة في المجال الرحب للدفاع عن النفس في السهب بشكل أسهل بكثير من الدفاع في القلاع الجبلية التي لا مخرج منها. إن آراء س. مونتسكيو تناسب مستوى علوم زمانه وفي القرن ٢٠م لا يمكن اتخاذها على محمل الجد وكذلك آراء أتباعه. إن تجاهل أسس المجتمع الإنساني - طرق إنتاج الخيرات المادية أوصلهم حتماً إلى مأزق مسدود.

الخزر:

تركوا العدد الأكبر من المدافن فقد وجد منها ٥ في تل ستيبان - رازبن و ٣ في التل الأميري و ٣ في تل باراني الذي نجحنا في التنقيب فيه[١] واقتصر فقط على المعاينة الأولية، وفي عدة تلال أخرى وجدت مخربة بشدة وقليلة التعبير (أي أنها مخربة لدرجة أنها لا تقدم فيها أيّ معلومات حضارية - المترجم) ولكن الهياكل العظمية التي فيها هي دون أي شك هياكل خزرية وهذا أعطى إمكانية تحديد الخصائص المميزة لطقس الدفن الخزري.

فقد وضعوا الجثة على الأرض والرأس غالباً إلى الغرب وأحياناً إلى الشمال كما وضعوا من ناحية الرأس وعاءين أحدهما من الغضار الرمادي وبالطبع - مع العقيدة (نوع من الطعام - المترجم) والآخر من الغضار الأحمر - فيه نبيذ أو نوع ما من المشروبات الأخرى. وعلاوة على ذلك وضعوا أيضاً من ناحية الرأس لحماً كذبيحة قربان - غالباً ما تكون خروفاً (عثرنا مرة على هيكل حمل بالكامل) وأحياناً طيراً وصدمنا في إحدى المرات لأنه ظهر في المكان الذي يفترض فيه وجود الذبيحة هيكل عظمي لمولود (طفل صغير) وكانت الأشياء عند الهيكلين العظميين قليلة جداً. وأحياناً تصادف سكاكين حديدية وأبازيم نطاقات صدئة جداً - تآكلها الصدأ - وبالية للدرجة التي صعب فيها إخراجها من التربة وحلقة هي عبارة عن قرط في الأذن اليسرى. وصادفنا مرة إشارة (نوط) حديدية وبتعبير أدق بقاياها مخيطة على اللباس. وكانت تلك مقبرة أناس فقراء يحصلون بالكد والتعب على وسيلة العيش ولا يسمحون لأنفسهم أن يطمروا للأبهة في الرمل الأشياء الضرورية أو الثمينة. وفي هذه الأماكن المليئة بالبعوض عاش ليس الأشراف الخزريون بل الشعب الأعزل من كل حماية.

أوعية خزرية

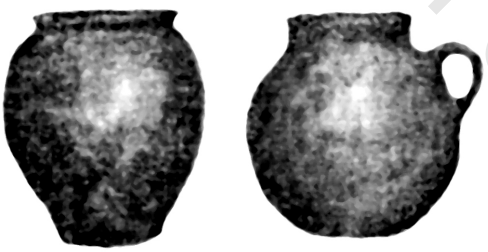

ومما لفت انتباهنا أن الأوعية الخزرية المنتشلة من المقابر هي شديدة الشبه بالأوعية السرماثية الرديئة وبالطبع هناك اختلافات لم تربكنا. ولكن نوع

١- توقفت البعثة في اللحظة التي لم تعد تترك فيها النجاحات أي مجال للشك - مع الأسف.

العجينة المخلوطة إلى حد ما وحتى الشي (الشوي) جمع ما بينهما وليس غريباً. وليس عَرضاً ولا مستغرباً أن يكون الخزر، بدرجة ما، أحفاد السرماثيين رغم أنهم عاشوا في ظروف مغايرة ولكنها متشابهة، أما الغضار عندهم فكان هو نفسه مما سبب تماثل العجينة ولذلك الأوعية عندهم متشابهة غير أن السرماثيين تمتعوا بذوق رفيع وثروات هائلة منهوبة من السكيث الذين انتصروا عليهم في القرن ٢ق.م ومر عهد التجمع الأولي للسرماثيين بيسر وكان في مقدورهم التفنن بالفنون. والخزر أيضاً ناضلوا زمناً طويلاً من أجل حق الوجود، وعند انتصارهم وقعوا تحت حكم أوساط حاكمة مختلفة الجنس عنهم ولم تنشأ عندهم ظروف النمو السريع للحضارة المادية، وعلى أيّ حال لو نجحنا بالعثور على بقايا العواصم الخزرية حتى لو لم تكن إيتيل فلتكن سيمندير الواقعة في مكان ما على التيريك، لكننا اكتشفنا هناك بلا شك أشياء الفن وآثار الرفاهية. ففي تلك الأماكن التي عملنا فيها كان للخزر ريفٌ وقرى. ولكن بالنسبة لنا كانت القرية الخزرية لا تقل أهمية عن العاصمة. وقلة المواد لم تكدرنا قطعاً وإنما دفعتنا وأثارت حماستنا لمتابعة التنقيب.

وكان من الغريب أن نقر أن كل الهياكل العظمية الخزرية تقريباً حملت آثار الأضرار الفادحة للتقادم الطويل. وعلى الأغلب كانت الجمجمة مهشَّمة بضربات صولجان أو هراوة على الجبين أو الصدغ، والرجلان أسفل الركبتين مقطوعتان ومراراً أصابع اليد اليمنى مقطوعة، ويصادف الرماد والفحم من النار مراراً كثيرة بين العظام ولكن ذلك لم يكن بقايا حرق الجثث لأن العظام لم تتعرض لتأثير النار الضعيفة التي لفحت على ما يبدو فقط الغطاء الجلدي والعضلات.

وبدت اللقى التي وجدناها وكأنها تصوير لأخبار المؤلف الأرمني موسيان كالانكاتويان الذي يتحدث عن «الجثث المقطعة بالسيوف والسكاكين» و «المذابح العنيفة الشنيعة» و «البكاء المسعور» على الموتى. وبالرغم من ذلك كانت الجثث المشوهة مدفونة بدقة مع مراعاة الطقس، وكما يبدو أننا كنا أمام المعتقدات التقليدية القديمة - الخوف تجاه الموتى واليقين بأن الميت يمكن أن يعود بالضرر.

فجميع الشعوب القديمة خافت من الأرواح الشريرة ولكن ليست كلها ربطتها بالجثث. مثلاً: الـ (الأمبوزا - Empusa)[1] اليونانية التي أفزعت الأطفال صورت على شكل مذؤوب والأباست التيوركية - الأرواح الليلية.

إن الاعتقاد بأن الجثة نفسها (وليس روح الميت) خطيرة على الناس الأحياء وبخاصة الأقرباء يبدو واضحاً أنه نشأ عند الشعوب الأوغورية ونقل إلى أوروبا من قبل الهنغاريين. وليس من قبيل المصادفة أن الخرافات والحكايات عن مصاصي الدماء الذين سموهم في البلقان (فوردالكي - Vordalki) وفي هنغاريا (فامبير Vampire) منتشرة فقط في البلدان المجاورة للمملكة الهنغارية: بولونيا وصربيا وبلغاريا وزد على ذلك الساحل الجنوبي لأوكرانيا حيث استوطن الهنغاريون القدماء - الأتراك - الغُزّ هناك من القرن العاشر وبشهادة جميع المؤلفين الشرقيين «إن اعتقاد الخزر شابه اعتقاد الأتراك الغُزّ» ووفقاً للعقائد الحياتية لا أظن أنه اختلف جداً عن دين الهنغاريين القدماء. فالخرافات تنتشر بسرعة وتقتبس بسهولة حتى من عند الأعداء. والهنغاريون والخزر كانوا حلفاء أحياناً وإذا تمّ تبني هذه الفرضية فإن تشويه الجثث يعلل بسهولة: لكي يحرم العدو الغامض من إمكانية التحرك لفحوه بالنار وقطعوا أطرافه. وكان هذا من وجهة نظر الوعي البدائي كافياً.

لنلق نظرة على المقارنة الإثنوغرافية هناك حيث صارت عمليات الدفن من أمر الدين وهذا يعني أن طقوس الدفن في البلدان المسيحية والإسلامية كانت محددة بدقة وأقارب المدفون كانوا مجبرين على إطاعتها، ومقابل ذلك لو قال أحد ما من سكان القرية نفسها بعد الدفن إن: الميت طارده ليلاً أو شيئاً ما من هذا القبيل، عندئذٍ ينبشون الجثة ويطعنون صدر الميت بوتد من الحور وأحياناً يحرق ببساطة وكانت هذه الخرافات منتشرة للغاية حتى القرن ١٧م، زد على ذلك أنه ما من أحد كافحها في ذلك الوقت. ومن الممكن أن هذا لم يكن عند الخزر وإنما تصور آخر مماثل له، ولكن

١- الإنسان المتحول أو القادر على التحول بواسطة السحر إلى وحشٍ ما - المترجم.

هذا وذاك مهمان لأن تصور فكرتهم عن الموت اختلفت كثيراً عن التيورك والتيليتسيين والبتشينيغ، وهي تدل أيضاً على استقلالية حضارتهم المعروفة.

obeikandl.com

تأريخ المقابر القديمة

والآن صار بإمكاننا العمل بالتاريخ الذي يمكن تدقيقه بناء على مجموعة اللقى ليس غير. وبالتأكيد يمكن اعتبار القرن ٦م التاريخ الأدنى لأنه في ذلك الوقت بالضبط ظهر السيف الضالع والركابات الحديدية المستديرة عند الفولغا واستبدلت الأخيرة قبيل القرن ٩م بالركابات ذات القاعدة المسطحة، ولكن الركابات المستديرة استطاعت البقاء معها لبعض الوقت. وكان اعتماد التاريخ الأعلى استناداً إلى شكل الركاب فقط هو شيء بلا تبصر، والتأريخ الأعلى الذي لا ريب فيه هو القرن ٨م لأن الفخار التتري نادراً ما يختلف عن ذاك الذي تتصف به اللقى التي لدينا. وتبقى ٧٠٠ سنة هي الفترة الخزرية التي تم فيها دفن الموتى في تل ستييان رازين، والطريقة الشكلية لعلماء الآثار لا يمكنها أن تدقق شيئاً أكثر من ذلك.

ولأننا نملك التاريخ والجغرافيا علاوة على علماء الآثار فلماذا لا نستفيد منهما؟ نشير أن الأتراك وحلفاءهم التيليتسيين مدفونون في المقابر، وبالتالي من المرجح على كل حال أنهم دفنوا في الوقت الذي دخل فيه الخزر بقوام الخاقانية. وهذا يعني قبل ٦٥٠م ووجود القبور البارسيللية يدل على أن تلك الأوقات التي تخاصم فيها الخزر والبارسيلليون قد فاتت (انقضت) وهذا يعني بداية القرن ٦م. وهكذا من السهل شرح ظهور البتشينيغ في المقابر الخزرية إذا اعتبر أنهم كانوا من عداد محاربي الخان التيوركي. وبعد سقوط الخاقانية التيوركية تقاتل الخزر والبتشينيغ أكثر مما تصادقوا.

وبالتالي فقط من منتصف القرن ٧م - يتمتع عصر الهجوم التيوركي - الخزري على ما وراء القفقاس - بكل الملامح التي عندها يمكن أن تظهر المقابر المشتركة لممثلي الشعوب الأربعة التي وضفناها. وهذا الرأي يجب أخذه بالحسبان طالما أنه لا يستثني مبدئياً وتقريباً إمكانية تدقيقه أو كما قال شيشرون (من أشهر خطباء روما - المترجم) «عند انعدام الثقة يجب أن يكون الاحتمال الأكبر هو المبدأ الأحكم».

اليهود:

من المعروف أنهم عاشوا في خازاريا ولكنهم كانوا قلائل، وخلال خمس سنوات لم تكشف التنقيبات التفصيلية ولا أثراً واحداً من آثارهم وهذا يعني أننا بحثنا ليس في المكان المطلوب. ولو أن إيتيل لم تكتسحها مياه الفولغا العارمة. ولو أن ساركيل لم تكن مجرد قلعة صغيرة مع حامية من المرتزقة التيورك ولو أن تموتاراكان لم تقع في مجال تأثير الحضارة والاقتصاد البيزنطيين لكنا كشفنا دون أي شك الآثار الفخمة ليهود القرون الوسطى التي وصفها ببهاء ليون فيختفانفرفي

«البـالادا الأسـبانية» المشـهورة ولـيس فقـط بعـض الشـواهد القبريـة الضـريحية العبرية بالقرب من تامان.

وبالتالي كان يجب نقل مواضع تنقيباتنا إلى مكان آخر وبهذا فقط يمكن إيجـاد مدينـة سيمندير العاصـمة الأولـى لخازاريـا - وحسـب أوصـاف المؤلفين القدامى كانت سيمندير من حيث الغنى وكثرة الناس لا تقل عن إيتيل، ولكنهـا سقطت تحت سيف سفياتوسلاف إيغوروفتش. وأدلي بالكثير من الآراء المختلفة حول موقع هذه المدينة، وبدت مهمتنا صعبة للغاية من ناحية ومن ناحية أخرى مهمة للغاية.

وصار التنقيب عن سيمندير مهمتنـا لربيـع عـام ١٩٦٣م لمـا خرجـت البعثـة مرة ثانية من لينينغراد إلـى خازاريـا. وفـي هذه المـرة أدخلنـا التيريك فـي برنـامج التنقيب علاوة على الفولغا.

obeikandl.com